الجزء الأول

« مقدمة »

الفصل الأول

طبيعة الجماعات الصغيرة

عقد مجلس رابطة جامعة أنتيباثيك (Antipathic) اجتماعه الشهرى من الأسبوع الماضى ، وكانت نتائجه كارثة كالمعتاد . هذا المجلس المذكور مكون من خمسة رجال اختيروا لكى يمثلوا الرابطات المختلفة من حرم الجامعة والأعضاء الخمس بالمجلس وإن تشابهوا فى ذكائهم المتوسط ، وحاجاتهم المتماثلة إلا أنهم يختلفون فى اهتماماتهم . وصل أعضاء المجلس إلى مكان الاجتماع وهم يرتدون ملابس تناسب أوقات الفراغ (حضر واحد من الأعضاء لتوه من ملعب التنس ، وهو مازال بملابس اللعب المتسخة وآخر يبدو عليه أنه كان نائما ولم يكترث كثيرا بأن يغير ملابسه أو يمشط شعره ، وكان منظر الآخرين أيضا على درجة مماثلة من الإهمال) . عقد الاجتماع فى بدروم اتحاد الطلبة فى غرفة غير معتن بنظافتها ، ووضعت المقاعد حول المنضدة المستطيلة بدون نظام وكانت الأوراق مبعثرة على الأرض ، وطفايات السجائر غير نظيفة ، وعند وصول الأعضاء إلى الغرفة اختار السكرتير أن يجلس إلى صدر المنضدة متجاهلا بذلك الرئيس الذى اضطر إلى الجلوس إلى جانبها .

وكانت المهمة الظاهرية (أو الصورية) للجماعة هى تحديد المشاريع للرابطات المختلفة خلال السنة الأكاديمية الجارية وبدأ الاجتماع بطريقة خطأ ، فقد حاول أحد الأعضاء ممن ليس لهم سلطة رسمية ، أن يفتح الجلسة ولكن الرئيس ذكره بأنه غير مكلف بإدارة الاجتماع ، ثم قضى الرئيس وقتا ليس بالقصير فى أن يشرح للمجلس حقوق ومزايا المسئولين فى المجلس عموما وحقوق ومزايا رؤسائها على وجه الخصوص .

فى أثناء هذه المحاضرة أظهر أعضاء الجماعة دلائل واضحة على استيائهم ومن الممكن القول أيضا ، اشمئزازهم ، ثم تلت ذلك مناقشة عامة اشترك كل عضو فيها بأن ذكر أخطاء وعيوب الأعضاء الآخرين ، وبعد حوالى خمسة عشر دقيقة من تبادل الاتهامات الحادة (أو اللاذعة) رفعت الجلسة بالاجماع . بعد أن قذف أمين الصندوق بقدح من القهوة الفاترة على السكرتير ولم يذكر شيء عن مهمة المجلس الأساسية .

وكان قد عقد اجتماع لمجموعة أخرى أيضا فى الأسبوع الماضى فى جامعة يوتوبى . وقد عقدت هذه المجموعة اجتماعها المقرر مسبقا فى موعده والذى تحدد له يوم الثلاثاء . وكانت هذه اللجنة مكونة من ثلاثة رجال وثلاث نساء تم انتقاؤهم عن طريق المنظمات الاجتماعية والأكاديمية فى الحرم الجامعى .

ويمثل أعضاء هذه المجموعة حاجات وقدرات مختلفة وإن كانت اهتماماتهم ونظرتهم إلى القيم متماثلة . وصل أعضاء اللجنة إلى مقر الاجتماع وهم فى ملابس نظيفة ومعتن بها . (كان الرجال يلبسون بدلا للصباح مع ربطات عنق ، والسيدات يلبسن بلوزت وجونلات أو بدلا كاملة للسيدات) .

عقد الاجتماع فى حجرة المؤتمرات فى مبنى اتحاد الطلبة وهى حجرة مخصصة لاستعمال رؤساء الطلبة وللجان مماثلة كهذه اللجنة المذكورة ، وكانت الغرفة نظيفة ومنظمة والكراسى مصطفة باعتناء حول المنضدة المستديرة والتى كانت توجد عليها طفايات سجائر نظيفة وكراسات جديدة لتدوين الملاحظات . وكان الغرض من الاجتماع هو بحث كيفية تقديم ٥٠٠ دولار كجائزة لأعظم اسهام يقدمه أحد طلاب السنة الرابعة خلال السنة الأكاديمية الجارية . وبدأ الاجتماع واستمر بسلاسة ويسر طوال مدة الجلسة وهى السبع وأربعين دقيقة .

افتتحت الرئيسة الجلسة بأن قدمت عرضا موجزًا وسريعًا للمشكلة التى تواجه اللجنة ، ثم استعرضت ما تم انجازه بالفعل من أعمال . ثم أعلنت الرئيسة ترحيبها بكل الأفكار والآراء التى يقدمها الأعضاء مؤكدة وضعها موضع الاهتمام والدراسة . وفى خلال المناقشة ، كانت الرئيسة دائمة الحرص على أن تستحث آراء الأقلية وتوجه بحذق المناقشة الوجهة التى يتم فيها دراسة الاقتراحات قبل قبولها أو رفضها . ثم تم الوصول بطريقة ودية إلى قرار بالاجماع ، ورفعت الجلسة وسط تعبيرات الثناء على العديد من أعضاء اللجنة . وبعد انتهاء الاجتماع ، بقى بعض الأعضاء لتبادل الأحاديث الودية فى موضوعات شتى لا تمت بصلة إلى مهام اللجنة .

ويتضح من السرد السابق أن اجتماعى مجلس رابطة جامعة انتيباثيك وجامعة يوتوبى يمثلان لأعضائهما تجربتين مختلفتين اختلافًا كبيرا . كان من مظاهر الاجتماع الأول الخلافات الشديدة ، والصراعات الداخلية بين الأعضاء وعدم الفاعلية ، أما الاجتماع الثانى فكان يسوده النظام والفاعلية ، كما كان الأعضاء متقاربين فى الميول والمشارب .

والآن ، كيف نفسر هذه الإختلافات ؟ ، وما هى العوامل التى تساهم فى خلق فاعلية وتساوق أعضاء الجماعة ؟ من الواضح أن المجموعتين السابقتين مختلفتان فى وجه عديدة ، فهما مختلفتان فى التكوين (واحدة من جنس واحد والأخرى فيها الجنسان) ، واحدة يتسم أعضاؤها بعدم الهندمة فى الملبس ، والأخرى أعضاؤها مهندمون فى ملبسهم ، واحدة يتجانس أعضاؤها فى قدراتهم والأخرى تتباين فى هذا الصدد . كذلك بالنسبة لحجرة الاجتماعات : الأولى غير منظمة وغير نظيفة ، وكانت المنضدة مستطيلة ، أما الثانية فنظيفة ومرتبة والمنضدة مستديرة ، أما بالنسبة للمهام الموكلة فالأولى غير محددة ، والأخرى محددة . هذا إلى جانب اختلاف المجموعتين فى أوجه أخرى عديدة محتملة . فأى من هذه الاختلافات الكثيرة هو السبب وراء الاختلافات الكثيرة من ممارسة الجماعتين لعملهما ؟ سوف تكشف فى هذا

الكتاب مختلف الطرق والإجراءات كمحاولة للرد على الأسئلة السابقة ، ونستعرض دلائل البحوث الخاصة بعملية الجماعة ثم بحث بعض الطرق التى من خلالها يمكن الاستفادة بمعلوماتنا عن أداء الجماعة من أجل تحسين علاقات أعضاء الجماعة ونتاجها .

ويشير عنوان الكتاب والفصل الحالى إلى اقتصار اهتمامنا على الجماعات الصغيرة . ومن ثم كان من لشرعى أن نتساءل عن المدى الحقيقى لصغر الجماعة الصغيرة ، وعن عدد ما يمكن أن يندرج فى نطاق هذه الفئة من جماعات قائمة بالفعل . وليس هناك فى الحقيقة خط واضح يفصل بين الجماعات الصغيرة والجماعات الكبيرة . فمن المؤكد بالنسبة لجماعة يبلغ أعضاؤها العشرة أفراد أو أقل أن تكون جماعة صغيرة ، وبالنسبة لأخرى يبلغ أعضاؤها الثلاثين فردا أو أكثر أن تكون جماعة كبيرة . ومع ذلك فهناك منطقة رمدية بين العشرة أفراد والثلاثين فردا يغيم فيها التحديد الملائم ، وغالبا ما يتم اجراؤه على أسس مغايرة لعدد أفراد الجماعة . فعلى سبيل المثال ، قد تقوم جماعة من ثلاثين شخصا بوظائفها كجماعة صغيرة إذا ما ارتبط أعضاؤها ببعضهم البعض ارتباطا وثيقا . وكانت دافعيتهم قوية للتعاون صوب هدف مشترك . ومن حسن الطالع أن لا يمثل الحجم الأقصى للجماعة مشكلة ، حيث تتعامل الغالبية العظمى من الدراسات مع جماعات من خمسة أعضاء أو أقل ، وإن مثلت هذه الحقيقة مشكلة ازاء تعميم النتائج المعملية على المواقف الطبيعية .

أما فيما يتعلق بالتساؤل الخاص بتحديد نسبة ما يوجد من جماعات يمكن اعتبارها جماعات صغيرة ، فهو تساؤل أيسر كثيرا من سابقه من حيث امكان الإجابة عليه . فقد كشفت دراسة مسحية لضروب العضوية فى جماعات قام بها جيمس (٣٠١) – عن أن ٩٢٪ من ضروب العضوية كانت فى شكل جماعات من اثنين أو أكثر من الأفراد ، واشتملت ٢٪ فقط من التجمعات الباقية على خمسة أفراد أو أكثر . وتجدر الإشارة إلى أن ما قام به جيمس هو ملاحظة للتجمعات التلقائية ابان ممارستها لأنشطة الحياة اليومية . ومن ثم فمن المحتمل أن يكون هذا الإجراء قد أفضى إلى تحيز إلى جانب الجماعات الصغيرة . ومع ذلك فإن نتائج جيمس إنما توحى بقوة بأن دراسة الجماعات الصغيرة تحوى فى طياتها الغالبية العظمى من ضروب العضوية . ومهما يكن من أمر فإنه لا يمكن للمرء أن يستدل من هذه البيانات على أن الجماعات الصغيرة هى أكثر التجمعات الاجتماعية أهمية ، هذا وإن بد' محتملا وقوفها كأكثر الجماعات قيمة من منظور الفرد العضو . فالجماعة الصغيرة – كما سنرى فيما يشار إليه من دراسات فى فصول تالية – تمارس تأثيرا قويا فى كل جانب من جوانب حياة الفرد تقريبا . فمعايير (محددات السلوك) الجماعة إنما تنهض بوظيفة التحديد للسلوك الملائم فى مختلف المواقف التى تتسم بالغموض بطريقة أو بأخرى ، كما يؤدى وجود الآخرين إلى اشباع حاجات الفرد إلى الانتماء ، وقد يدفع وجودهم أيضا إلى مستويات غير عادية من الأداء فضلا عن تحقيق أهداف داخل الجماعة يتعذر على المرء تحقيقها وهو منفرد ، إلى جانب أمور أخرى تفوق ذلك كثيرا .

وربما كان ما قيل إلى الآن كافيا لإثارة فضول القارئ إلى حد يبدو معه راغبا فى استقراء ما قدمته بحوث الجماعات الصغيرة من معلومات ، أو على الأقل فى أن يطرح التساؤل التالى : ما هى الجماعة ؟ وهذا تساؤل مشروع . فعندما نقدم على مناقشة موضوع هام ينبغى أن يكون بمقدورنا تحديد مصطلحاتنا بأكبر قدر ممكن من الوضوح . وقد كان من اليسير أن نطرح تعريفنا الخاص للجماعة ثم نتقدم منه صوب موضوعات أكثر حيوية . إلا أنه لا يوجد تعريف واحد له قبوله العام بين جميع (أو حتى معظم) دارسى سلوك الجماعات الصغيرة . ومن ثم فمن الأجدى أن ننظر فى المعانى المختلفة لهذا المفهوم .

تعريف الجماعة :

لا يتمثل هدفنا فى أن نقدم سردا شاملا لتعريفات الجماعة ، ولكننا سوف نتولى بالتقديم عينة من التعريفات الممثلة لمناحى التصور المختلفة ، وليست كل هذه المعانى بالضرورة فريدة فى بابها . بل على العكس من ذلك هناك الكثير من التداخل بينها ، كما أنه من الأمور الواضحة أن المؤلفين المختلفين ينظرون إلى جوانب مختلفة من الظاهرة عينها . وفى الحقيقة فإن لبعض المؤلفين القدرة على مناقشة ظواهر الجماعة بتفصيل شديد ، ودون ما تقديم لتعريف محدد لمصطلح الجماعة (ومثال ذلك ١٤٢ ، ٣٨٨ ، ٤٨٩ ، ٥١٩) . فقد ارتأى هؤلاء الكتاب أن تحديد خصائص الجماعة الصغيرة يعد فى نظرهم أمرا أكثر ملاءمة من تقديمهم لتعريف واحد لها ، هذا بينما حدد آخرون الجماعة فى ضوء واحد أو أكثر من الخصائص التالية :

١ – مدركات ومعارف أعضاء الجماعة ، ٢ – الدافعية واشباع الحاجات ، ٣ – أهداف الجماعة ، ٤ – تنظيم الجماعة، ٥ – اعتماد أفراد الجماعة على بعضهم البعض ، ٦ – التفاعل .

فى ضوء المدركات[1] :

تنبئ تعريفات الجماعة فى ضوء المدركات على مسلمة لها قبولها وهى وجوب دراية هؤلاء الأعضاء بعلاقاتهم بالآخرين ، ويتمثل الدور الأساسى الذى تلعبه مثل هذه المدركات من حيث الإنباء بوجود الجماعات فى تعريفى سميث وبيلز :

قد يمكننا أن نحدد الجماعة الاجتماعية على أنها وحدة تتكون من عدد جمعى من الكائنات المنفصلة (ممثلين)[2] ممن يتوفر لديهم الإدراك الجماعى بوحدتهم والقدرة على العمل أو ممن يسلكون بأسلوب موحد إزاء تعاملهم مع بيئتهم ، أو كلا الأمرين معا . (٥٧٨ ، ص ٢٧٧)

تعرف الجماعة الصغيرة على أنها أى عدد من الأشخاص ممن يتفاعل كل منهم مع الآخر فى أحد مواقف المواجهة أو فى عدد من هذه المواقف تفاعلا يتلقى فيه كل عضو من الأعضاء

---

(١) Perceptions.

(٢) Agents.

انطباعا أو إدركا متميزا للغاية عن كل عضو آخر بالقدر الذى يمكنه من أن يصدر رد فعل معين – فى حينه أو بعدئذ – تجاه كل فرد من هؤلاء كفرد حتى وإن اقتصر ذلك على مجرد تذكر أن الآخر كان موجودا .
(٢١ ، ص ٣٣)

ويقتضى كل تعريف من هذين التعريفين إدراكا للجماعة من قبل أعضائها ، هذا وإن فرض كل تعريف منهما محكات إضافية . فيقتضى تعريف سميث امكانية الفعل الجماعى على الأقل ، بينما يحدد بيلز الموقف الذى يحدث فيه إدراك الأفراد للجماعة تحديدا صارما ، كما يحدد بالدقة الظروف التى يتكشف فى ظلها هذا الإدراك . ومع ذلك فالقوام الأساسى لكلا التعريفين هو أن يدرك أعضاء الجماعة وجودها .

فى ضوء الدافعية :

من الأمور الشائع ملاحظتها أن ينضم الأفراد إلى جماعة ما لاعتقادهم أنها سوف تشبع حاجة ما لديهم . ومن ثم فقد يشترك رجل الأعمال فى أندية مدنية لكى تتحسن فرص العمل لديه ، وقد ينتمى طالب الجامعة إلى رابطة خيرية لكى تشبع لديه حاجات اجتماعية ، كما قد ينضم المدافع عن الحقوق المدنية إلى جماعات نشطة فى اتجاهاتها لاعتقاده من إمكانية ارضاء مثل هذه الجماعات لدوافعه إلى تحسين المجتمع . والجماعات التى تفشل فى اشباع حاجة فردية أو حاجات فردية لأعضائها عادة ما يعتريها التفكك . وتعد التعريفات التالية ممثلة لتلك التعريفات المبنية على هذا الجانب من الأداء الوظيفى للجماعة :

والتعريف الذى يبدو أكثر جوهرية هو أن الجماعة عبارة عن جمع من الكائنات يقف فيها وجود الكل كشىء ضرورى لإشباع حاجات فردية معينة لدى كل فرد منهم .
(١١٧ ، ص ١٦٧)

نحن نعرف « الجماعة » بأنها مجموعة من الأفراد يعتبر وجودها كجماعة مثيبا للأفراد .
(٣٣ ، ص ٣٩)

ويقضى كلا من هذين التعريفين بأن اشباع الحاجة فى حد ذاته هو العنصر الجوهرى اللازم لكى تتحدد للجمع هويته كجماعة . فقد أكد باس على أن الخصائص الأخرى المتضمنة فى التعريفات الأخرى ليست بذات ضرورة . فإدراك الأعضاء لوحدتهم ، والاتفاق فى الأهداف ، والتفاعل هى فى نظره أمور لا تتصل بأغراض التعريف إلا إذا كانت هذه الخصائص مرتبطة بجوانب الجماعة التى تحمل امكانيات الإثابة . والصعوبة العملية لتعريف الجماعة فى ضوء اشباع الحاجة هى أمر له وضوحه : إذ كيف يتسنى للمرء تحديد ماهية الحاجات المنشطة وما إذا كانت الحاجات تتلقى اشباعها بالفعل من خلال تجمع الأشخاص أم لا ؟

فى ضوء الأهداف :

تتصل تعريفات الجماعة فى ضوء أهدافها اتصالا كبيرا بتلك التعريفات التى تنبنى على

الدافعية . فمن المسلم به أن يعتبر تحقيق الهدف أمرا مثيبا ، وإلى الحد الذى يكون فيه الحال على هذا النحو فإن التعريفات فى ضوء الأهداف تماثل تماما التعريفات فى ضوء الدافعية . وربما يكفى مثال واحد للكشف عن ذلك :

ما هى على وجه الدقة هذه الجماعات التى نشير إليها ؟ هى بتعبير بسيط وحدات مكونة من شخصين أو أكثر يتصلون ببعضهم البعض من أجل غرض ما ، كما أنهم يجدون فى هذا الاتصال شيئا له معناه .

(٤٣٠ ، ص ٢)

وربما اقتضى الأمر – قبل أن نترك هذا الجزء – الإشارة إلى أن تصور الجماعات فى ضوء الأهداف ليس بالأمر الجديد . فقد أشار فريمان فى فترة مبكرة ترجع إلى عام ١٩٣٦ إلى أن الأفراد ينضمون إلى الجماعات من أجل تحقيق أهداف مشتركة .

فى ضوء التنظيم[١] :

يتردد التأكيد على الخصائص التنظيمية للجماعات بشكل شائع فى التراث السوسيولوجى . ويبدو هذا مفهوما فى ضوء الاهتمام المتزايد من جانب عالم الاجتماع بالجماعة كوحدة تحليل فى مقابل اهتمام عالم النفس بعضو الجماعة الفرد . إلا أن هذا الاهتمام من جانب علماء الاجتماع لا يقتصر عليهم وحدهم كما سنرى . فدارسوا سلوك الجماعات من منظور هذا التوجه إنما يأخذهم الاهتمام بالعناصر البنائية للجماعات (أدوار ومراكز ومعايير) ، والعلاقات بين هذه العناصر بعضها مع البعض الآخر ، فالخصائص الأساسية للتنظيم التى تحدد جماعة ما استنادا إلى ماكديفيد وهارای هى الأداء الموحد والعناصر المرتبطة بعضها بالبعض الآخر والميكانيزمات[٢] المنظمة . فهما يحددان الجماعة على النحو التالى :

الجماعة السيكولوجية هى نسق منظم من فردين أو أكثر ، يرتبط كل منهم بالآخر بحيث ينهض النسق بوظيفة ما ، كما يتوفر لأعضائها مجموعة من علاقات الأدوار ومجموعة من المعايير التى تنظم وظيفة الجماعة ووظيفة كل عضو من أعضائها . (٣٨٦ ، ص ٢٣٧) .

ويتماثل هذا التعريف كثيرا مع ذلك الذى سبق أن أورده شريف وشريف لجماعة هى وحدة اجتماعية تتكون من مجموعة من الأفراد يقفون كما تحتضن مجموعة من القيم والمعايير تنظم سلوك أعضائها الفرادى على الأقل فى الأمور ذات التأثير على الجماعة .

(٥٦٧ ، ص ١٤٤) .

وتبدو التعريفات فى ضوء التنظيم حاصرة الرؤية للخصائص البنائية فى دائرة المراكز الاجتماعية والأدوار والمعايير ، على الرغم مما هو واضح من تضمين عناصر بنائية أخرى فى

---

(١) Organization

(٢) Mechanisms.

بناء الجماعة (كعلاقات القوة والعلاقات الوجدانية على سبيل المثال ، وما إلى ذلك) . ومع ذلك فإن الاعتراض الأساسى على تعريفات من هذا النوع هو أنها مجرد أوصاف لجانب واحد من الجماعات ألا وهو بناء الجماعة .

فى ضوء الاعتماد المتبادل[١] :

لقد حاول ليفين منذ سنوات عديدة أن يبين بطريقة مقنعة أن الجانب الأساسى الذى يحيل جمعا من الأفراد إلى جماعة هو الاعتماد المتبادل من قبل الأفراد بعضهم على البعض . وقد شغله ما بدا عليه بعض الكتاب من رؤية للتماثل بين الأعضاء على أنه الخاصية الحاسمة للجماعات . وتقوم تعريفات الجماعة من وجهة نظر ليفين ، على التماثل بما فى ذلك تعريفات الجماعة فى ضوء أهدافها . وبنص كلماته يقول :

يجب أن يقضى إدراك الجماعة ككل دينامى بتعريف لها يقوم على الاعتماد المتبادل بين الأعضاء (وبمعنى أدق ، للأجزاء الفرعية للجماعة) . ويبدو التأكيد على هذه النقطة ذا أهمية ، حيث يتعامل العديد من تعريفات الجماعة مع التماثل بين أعضاء الجماعة دون التعامل مع الاعتماد الدينمى المتبادل كعامل مكون لها .. وينبغى على المرء أن يدرك أنه حتى تعريف عضوية الجماعة من خلال الهدف المشترك أو العدو المشترك ما هو إلا تعريف من خلال التماثل .
(٣٥٧ ص ص ١٤٦ - ١٤٧) .

ويعرف عدد من دارسى سلوك الجماعة الحاليين الجماعة فى ضوء الاعتماد المتبادل على النحو التالى :

نعنى بوجه عام بهذا المصطلح (الجماعة) مجموعة من الأفراد يواجهون مصيرا مشتركا ، أى أفراد يعتمدون اعتمادا متبادلا على بعضهم البعض ، بمعنى إنه إذا ما أثرت حادثة على واحد من الأعضاء تبدى احتمال تأثيرها على الكل .
(١٩٤ ، ص ٦) .

الجماعة هى جمع من الأفراد تربط بينهم علاقات تجعلهم معتمدين على بعضهم البعض بدرجة كبيرة . وبحكم هذا التعريف يشير مصطلح الجماعة إلى فئة من الكيانات الاجتماعية تجمعها خاصية مشتركة تتمثل فى الاعتماد المتبادل بين أعضائها المكونين لها .
(١١٤ ، ص ٤٦) .

وقد يعنى مصطلح الاعتماد المتبادل فى التعريفات السابقة عددا مختلفا من الأمور ، أى أنه باستطاعة الأعضاء أن يعتمد كل منهم على الآخر من منظور بعد أو أكثر من الأبعاد . وتبدو التعريفات فى ضوء الاعتماد المتبادل بين الأعضاء متماثلة فى جوهرها - من وجوه عدة - مع تلك التعريفات القائمة على مفهوم التفاعل ، والتى ستطرح فى القسم التالى .

---

(١) Interdependency

فى ضوء التفاعل :

يعتبر التفاعل فى جوهره أحد صور لاعتماد المتبادل (١١٤) . ويعتقد كثير من الكتاب أن هذه الصورة من الاعتماد المتبادل هى جوهر « الجماعية »[١] ومن ثم أسسوا تعريفاتهم للجماعة على هذا الجانب :

إننا نعنى بالجماعة عددا من الأشخاص ممن يتصل أحدهم بالآخر فى الغالب عبر مدى زمنى ، وممن يكونون بالقلة التى تتيح لكل شخص أن يتصل بالآخرين لا بطريقة غير مباشرة – من خلال الغير – ولكن عن طريق المواجهة . (٢٠٨ ، ص ١) .

الجماعة هى عدد من الأشخاص ، كل واحد منهم فى حالة تفاعل مع الآخر ، وعملية التفاعل هذه هى التى تميز الجماعة عن التجمع . (٧٥ ، ص ٤) .

ربما يمكن النظر إلى الجماعة على أنها نسق مفتوح من التفاعل تحدد فيه الأفعال بناء النسق ، كما تمارس التفاعلات المتتابعة تأثيرات متساوية على هوية النسق .

(٥٩٧ ، ص ١٨) .

وعلى الرغم من اشتمال كل تعريف من هذه التعريفات على عناصر أخرى ، إلا أنه يبدو أن المفهوم الأساسى فى كل منها هو التفاعل بين أعضاء الجماعة ، فيستفيد تعريف هومانز من فكرة الاتصال بين الأشخاص ، بيد أنه يمكن اعتبار الاتصال بين الأشخاص مماثلا فى بعض النواحى للتفاعل ، فمن العسير الوقوف على حالة من حالات الاتصال لا تتضمن تفاعلا والعكس صحيح . وقد يأخذ التفاعل صورا عديدة : تفاعل لفظى وتفاعل بدنى وتفاعل وجدانى .. الخ ، ومن المحتمل أن تشتمل أية جماعة من الجماعات على أنماط عديدة من التفاعل ، ومن ثم يصبح نمط التفاعل عند تعريف الجماعة أمرا مقيدا لا مبرر له .

أبسط تعريف للجماعة :

وجميع هذه التعريفات صحيحة حيث يشير كل منها إلى جانب أو جوانب هامة من مفهوم الجماعة ، أو يتحدد هذا المفهوم بشكل أو بغيره . ويبدو أن المنظرين المختلفين ينظرون إلى جوانب مختلفة للجماعة ويفترض كل منهم أن منظوره يكشف عن الخصائص الأساسية لها . وتبدو الفروق فى التعريفات فى بعض الحالات ناتجة إلى حد كبير عن التباين فى مستوى التحليل كالفروق فى التعريفات التى تتحدد من منظور المدركات وتلك التى تتحدد من منظور التنظيم . كما تبدو هذه الفروق فى حالات أخرى راجعة فى جملتها إلى تباينات فى المعانى[٢] كالفروق فى تعريفات ينتظمها الاعتماد المتبادل بين الأعضاء فحسب ، وأخرى تتحدد من

---

(١) Groupness

(٢) Semantic Variations

منظور التفاعل . وحتى عندما تبنى التعريفات على خاصية واحدة فغالبا ما توجد فروق فى تفاصيل طفيفة مثل اقتضاء أن يكون هناك تواصل من خلال المواجهة أو ضرورة أن تتماثل النتائج المترتبة على ديناميات الجماعة بالنسبة لكل أعضائها . ومع ذلك فإن هناك قدرا كافيا من الشيوع[1] بين التعريفات بحيث تشير جميعها إلى عين المفهوم الأساسى .

هذا وإن كان فى منظورنا نحن أن التعريفات التى تقوم على الاعتماد المتبادل أو على التفاعل إنما تجسم بصورة مباشرة العناصر الأساسية لمفهوم « الجماعة » فمن المسلم به إذا ما وجدت الجماعة أن يكون أعضاؤها حينئذ : ١ – ذوى دافعية للانضمام إلى الجماعة (ومن ثم يتوقعون منها اشباعا لبعض حاجاتهم) ، ٢ – وواعين بوجودها بمعنى أن تكون مدركاتهم حقيقية . فضلا عن ذلك فإنه من قبيل الملاحظة الشائعة عندما يتفاعل الأفراد – حتى ولو لفترات قصيرة – أن تبدأ التمايزات فيما بينهم فى الظهور ، فبعض الأفراد يسهمون فى ديناميات الجماعة أكثر من إسهام البعض الآخر منهم ، ويمثل بعضهم قيمة أكبر من التى يمثلها الآخرون ، كما تبدأ أنماط معينة من السلوك فى الظهور ويتم قبولها . وباختصار يبدأ تنظيم الجماعة فى أن يأخذ طريقة . وأخيرا فإنه ليس من الواضح أن يقف الهدف المشترك كخصيصة أساسية للجماعة . فمن الممكن – على المستوى النظرى على الأقل – أن تعنى الجماعة بالأهداف الفردية فقط . وتلخيصا لما سبق فإنه يمكن القول بأن : دوافع الأفراد قد تفسر نشأة الجماعة ، وقد يدرك أعضاء الجماعة بوضوح وجود الجماعة أو يدركون عضويتهم فيها ، كما قد لا تكون هناك مندوحة عن التنظيم (صياغة الأدوار والمراكز والمعايير والعلاقات بينها) كأمر ناتج عن وجود الجماعة . إلا نه ليس من بين هذه الجوانب ما هو ضرورى أو كاف لتحديد « الجماعة » . وعلى هذا فإنه اتساقا مع أهداف هذا الكتاب « تعرف الجماعة على أنها اثنان أو أكثر من الأشخاص ، يتفاعل كل منهم مع الآخر بشكل يفضى إلى أن يؤثر كل فرد فيها فى الآخر ويتأثر به » . والجماعة الصغيرة هى جماعة تحتوى على عشرين أو أقل من الأعضاء ، هذا على الرغم من أننا سوف نتعامل فى معظم الحالات مع جماعات ذات خمسة أعضاء أو أقل .

وربما يساعد على توضيح هذا التصور للجماعة طرح بعض نماذج للتجمعات الممثلة لجماعات ونماذج أخرى لتجمعات غير ممثلة لجماعات . فإذا ما رأى شخص ما وليكن « أ » شخصا آخر وليكن « ب » ورغب فى الحديث معه فاقترب بالتالى منه ، ففى هذه الحالة يكون « أ » متأثرا بالشخص « ب » والعكس صحيحا ، وفى هذه الحالة أيضًا لا يقوم تفاعل ، كما لا يكون الشخصان « أ » ، « ب » جماعة فيما بينهما . ولكن عندما يلاحظ الشخص « ب » أن الشخص « أ » يحاول أن يلفت انتباهه ، فقد يدفعه ذلك إلى الإقتراب بدوره من

---

(١) Comunality

الشخص « أ » وفى هذه الحالة يدخل الشخصان « أ » ، « ب » فى تفاعل مع بعضهما ويكونان جماعة فيما بينهما . أو فلننظر فى حالة شخص ما وليكن « أ » ينظر إلى السماء ، فدنا منه الشخصان « ب » و « جـ » كل بمفرده وأخذا ينظران فى ذات الاتجاه . هنا أيضا لا تقوم الجماعة على الرغم من حقيقة تأثر الشخصين « ب » ، « جـ » بالشخص « أ » وذلك لأن الشخص « أ » لم يتأثر بأيهما . فهؤلاء الثلاثة يصبحون جماعة عندما يدخلون فى مناقشة (تفاعل) حول موضوع انتباههم . ومن ثم ينبغى أن يكون واضحا أن التفاعل يقضى بالتأثير المتبادل ، وأن تجمعا من الأفراد يصبح جماعة حال حدوث التفاعل فحسب .

وعلى الرغم من أن التفاعل يمثل الخاصية الأساسية التى تميز الجماعة من لتجمع ، فإن هناك جوانب أخرى من الجماعة ، لها أهميتها .

فالمتخصص فى ديناميات الجماعة يهتم بصفة عامة بالجماعات التى : ١ – تستمر لفترة زمنية معقولة (أكثر من بضع دقائق على الأقل) ، ٢ – ويجمعها هدف أو أهداف مشتركة ، ٣ – وأرست لها بناء أوليًا على الأقل .

الوجود الحقيقى للجماعات :

هل للجماعات وجود حقيقى ؟ قد تبدو إثارة هذا التساؤل بعد تخصيص صفحات عديدة لتعريف الجماعة أمرا غريبا . ومع ذلك فهو تساؤل يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار نظرا لما أثير من جدل استمر لسنوات عديدة حول « الوجود الحقيقى » للجماعات . فقد وضح بعض العلماء الاجتماعيين أن مفهوم الجماعة ليس سوى قياس تشبيهى أو تجريد نستخدمه فى تفسير سلوك الأفراد وهم مجتمعون . وبيَّن البورت (٨) أن ما يوجد هم الأفراد فقط ، وليست الجماعات بأكثر من مجموعة من القيم والأفكار والمقاصد والعادات .. وما إلى ذلك مما يوجد فى آن واحد فى عقول الأفراد وهم فى تجمعاتهم . وباختصار توجد الجماعات فى عقول الأشخاص فقط . كما بيَّن آخرون فى مستوى مماثل من الإقناع (١٧٢ ، ٦٦٤) أن الجماعات لها كياناتها ويجب معاملتها معاملة الأشياء الأخرى الموجودة فى بيئتنا . ويؤكد أولئك الذين يتبنون هذه الوجهة من النظر أنه لا يمكن تفسير ظواهر الجماعة من خلال مصطلحات سيكولوجية ، ومن ثم فأى تفسير صادق لديناميات الجماعة يجب أن يكون على مستوى الجماعة . وفى موضع ما بين هاتين الوجهتين من النظر يوجد أولئك المنظرون الذين يرون أن الكيانات – ومن بينها الجماعات – تتباين فى الدرجة التى تتمثل بها كوجود « حقيقى » ، وأن المشكلة هى تحديد درجة هذا الوجود (١٠٥ ، ١٦٢ ، ٤٨٤ ، ٥٨٨) .

وكما هو الحال بالنسبة للكثير من ضروب الجدل فإن الموقف المعتدل هو الذى يتحول إلى كونه أكثر هذه الضروب معقولية . وقد يكون دونالدت . كامبل (١٠٥) من أكثر الممثلين

لهذه الوجهة من النظر وضوحا . فقد أشار إلى أن أشياء معينة فى بيئتنا كالأحجار وأقداح الشاى تبدو أكثر افصاحا لهويتها وفئويتها من أشياء أخرى كالجماعات الاجتماعية ، وبالتالى فهى أكثر « واقعية » . ويقيم هذا الأمر الاعتراض بصورة أو بأخرى فى مواجهة استخدام مصطلح واحد للإشارة به إلى كلتا الفئتين من الأشياء ، ومع ذلك فهو يرى أن الفروق بين الأشياء التى من هذا القبيل هى فى حقيقتها فروق فى أدراكاتنا لها . بمعنى آخر أن الأشياء الفيزيقية كالمناضد والمقاعد هى أشياء أكثر من الجماعات الاجتماعية صلابة وثباتا ووضوحا فى حدودها . فلا يمكننا على سبيل المثال أن نرى المقعد فحسب ولكن يمكننا أيضا لمسه والشعور بدرجة حرارته وسماع الأصوات المترتبة على نقرنا إياه وما إلى ذلك ، فالمعلومات عنه يمكن الحصول عليها من أعضاء حسية متعددة ، على حين ترد المعلومات عن الجماعة من عدد أقل من المصادر وغالبا ما تبدو هذه المعلومات أقل مباشرة وأقل اقناعا من تلك التى ترد عن الأشياء الفيزيقية . ومن ثم فإنه على الرغم من أن العملية فى جوهرها واحدة إلا أن الجماعات الاجتماعية تدرك على أنها أقل واقعية من الأشياء الفيزيقية . ويرى كامبل أن مصطلح « الكيان »[١] يتخذ معنى أن يكون أو لا يكون ومن ثم فهو مصطلح غير دقيق للتعبير عن مفهوم درجة « الواقعية »[٢] وبناء عليه فقد قدم مفهوم «الكينونة»[٣] ليشير به إلى درجة توفر الوجود الفعلى .

وما دام هناك تسليم باحتمال تباين الأشياء فى درجة وجودها الفعلى أو على الأقل فى درجة ماتدرك به على أنها ذات وجود فعلى ، يبرز تساؤل خاص بالعوامل التى تحدد الإحساس بالكينونة ، وقد رأى كامبل أن لمبادئ الجشطالت كفاءة فى تفسير إدراك الكينونة . وهذه المبادئ الشهيرة هى التقارب[٤] والتماثل[٥] والمصير المشترك[٦] وتجويد الشكل[٧] . ولننظر بمزيد من التفصيل فى الكيفية التى تنطبق بها هذه المبادئ على إدراك الوجود الحقيقى للجماعات .

إدراك الكينونة :

إن تحديد جمع من الوحدات المتعددة فى صورة كيان هو فى جوهره عملية إرساء لحدود تفصل بين الوحدات التى تنتمى إلى ذلك الكيان عن الوحدات الأخرى التى ليست هى بجزء منه . ومن ثم فقد حاول كامبل من خلال استخدام مبادئ التنظيم أن يحدد الظروف التى يمكن فى ظلها إرساء مثل هذه الحدود . واعتقد أن تحليلا من هذا النمط يمكن تطبيقه أيضًا على

---

(١) Entity
(٢) Realness
(٣) Entitativity
(٤) Proximity
(٥) Similarity
(٦) Common fate
(٧) Pregnance

الأشياء الفيزيقية كالأحجار والمقاعد مثلما يمكن تطبيقه على الظواهر الاجتماعية كالجماعات الاجتماعية . ويبدو أن المصير المشترك – وفقا لمنظور كامبل – من أكثر المبادئ أهمية فى إرساء الحدود ، يتلوه فى الأهمية مبدأ التماثل والتقارب . أما مبدأ تجويد الشكل – والذى يشير به إلى حقيقة ميل العناصر التى تكون نمطا لأن تدرك على أنها أفضل شكل ممكن – فإنه يلعب دورا ثانويا فى إدراك الكينونة . وقد استخدم كامبل هذا المبدأ لكى يتبين من خلاله فقط درجة الإغلاق أو الاكتمال التى يفضى إليها تطبيق المبادئ الثلاثة الأخرى .

وقد أوصى كامبل فى محاولته الكشف عن كيفية استخدام المصير المشترك فى اثبت الكينونة بأنه قد يكون بالإمكان حساب معامل المصير المشترك[1] والذى قد يعكس درجة تواجد وحدتين أو أكثر من ذات المكان فى آن واحد . فإذا ماكان هناك على سبيل المثال حجر متعدد الألوان ، فقد لا يبدو واضحا للوهلة الأولى أن أجزاءه ذات الألوان المختلفة تمثل كيانا واحدًا . بيد أنه إذا ما دفع بالحجر إلى الأمام فإنه من المستطاع بصفة عامة ادراك تحرك الأجزاء المختلفة مع بعضها البعض ، أى أن الأجزاء تحافظ عى نفس وضعها النسبى بصرف النظر عن الوضع المكانى للحجر . ومن ثم ينتظم تلك الأجزاء المختلفة مصير مشترك ، وهذا مؤشرٌ للكينونة . ويمكننا بنفس الطريقة أن نلاحظ المدى الذى يعايش به مجموعة من الأفراد مصيرا مشتركا . فإذا ما أشرنا على سبيل المثال إلى أن رجلا وامرأة يعبران الطريق جنبا إلى جنب ، فقد يعوزنا اليقين فيما يتعلق بعلاقتهما . أما إذا انعطفا سويا فى اتجاه واحد ، وصعدا سيارة واحدة .. الخ . فإننا ندرك حينئذ أنهما بصحبة بعضهما ، أى أنهما يكونان وحدة أو جماعة . ومن ثم فإن جوهر المصير المشترك هو معايشة عناصر احدى الوحدات لنتائج متماثلة . فتقف الدرجة التى تتباين بها اقترانيا النتائج الخاصة بعديد من الأفراد كمؤشر أو هاد لادراكهم كجماعة ، فكلما زاد التباين الاقترانى زادت درجة الكينونة المنسوبة إليهم .

وعلى الرغم من أن التماثل لا يبدو على مستوى جوهرية المصير المشترك ، فمن المؤكد أنه يلعب دورا هاما فى ادراك الكينونة . فتؤدى الوحدات المتماثلة فى جانب معين يمكن ملاحظته إلى ادراكها ككيان واحد . فالجنود الذين يرتدون ثوبهم العسكرى يرون كجماعة ، والخيول إنما ترى كجماعة أيضا ، ونفس الشىء بالنسبة للقطط وما إلى ذلك . وقد يؤدى التماثل بالطبع إلى أخطاء إدراكية ، فقد ندرك أشخاصا من طوال القامة على أنهم جماعة (كأعضاء فى فريق لكرة السلة على سبيل المثال) فى حين أن الصدفة وحدها فى واقع الأمر هى التى جمعتهم فى مكان واحد ووقت واحد دون أن يعرف أى منهم الآخر. وفى غالب الأمر يخدم التماثل كهاد أولى من حيث إدراك الكينونة حيث يمكن بعد ذلك التأكد منها خلال تطبيق مبدأ المصير المشترك .

---

(١) Coefficient of Common fate

وربما يكون القارئ قد لاحظ فى مثال الأشخاص طوال القامة – ممن أدركناهم على أنهم فريق لكرة السلة – وجود أساس ضمنى مفاده التقارب الشديد بين هؤلاء الأشخاص المتماثلين . إلا أن هذا ليس بالأمر الضرورى ، فربما أدرك عديد من الأشخاص من طوال القامة على أنهم ينتمون إلى إحدى فرق كرة السلة حتى إذا ما كانوا قد شوهدوا من أماكن مختلفة من المدينة ، وفى أوقات مختلفة ، وذلك على افتراض أن الشخص المدرك كان له ما حدا به إلى الاعتقاد بوجود فريق لكرة السلة فى المدينة . ومهما يكن من أمر ، فإن هذا المثال يجسم بكل تأكيد دور التقارب . فربما أدرك طوال القامة على أنهم ينتمون إلى بعضهم البعض حتى ولو يكونوا على مقربة من بعضهم ، ولكن احتمال ادراكهم على هذا النحو يتزايد من خلال التقارب ، فاحتمال أن يدرك جمع من الأفراد يشغلون مكانا مشتركا على أنهم يشكلون جماعة أكثر من احتمال ذلك فى حالة الأفراد المتفرقين حتى ولو لم يكن هناك اساس آخر لإدراك الكينونة ويخدم التقارب غالبا – شأنه فى ذلك شأن التماثل – كأساس أولى لإدراك الجماعية التى يمكن التأكد منها خلال مؤشرات المصير المشترك .

وأى جمع من الأفراد يعايشون مصيرا مشتركا فى مواقف عديدة مختلفة ويتماثلون فى جانب أو أكثر من الجوانب ويكونون على مقربة شديدة من بعضهم البعض سيدركون دون ما شك على نهم ذوو كيان واحد وتتباين درجة الواقعية المنسوبة إلى الكيان بتباين قوة مبادئ التنظيم الإدراكى . وما دام أساسنا لأضفاء صفة الوجود الفعلى على أى شىء يشتق من إدراكنا له ، يجب علينا أن ننتهى (مع كامبل) إلى أن الجماعة تدرك على أن لها وجودا فعليا وفقا للدرجة التى تدرك بها ككيان .

مشكلات فى ديناميات الجماعة :

على الرغم من قيام الخلاف لدى علماء النفس والاجتماع فيما يختص بالوجود الفعلى للجماعات فإن هذا لا يمثل مشكلة بالنسبة لدارس ديناميات الجماعة . فالشخص المهتم بالدراسة العلمية للجماعات لا يداخله شك فى وجودها . بيد أن هناك عددا من المشكلات التى يختلف شأنها المتخصصون فى ديناميات الجماعة . ولا يثير هذا الدهشة ما دامت ديناميات الجماعة هى مجال من البحث جديد نسبيا . فمن طبيعة المسعى العلمى أن يثير التساؤل دوما ، وأن ينقب عن الحقيقة ، والطريق إلى الحقيقة ليس بالأمر اليسير على الإطلاق ، فلا مندوحة إذن من أن تبرز الاختلافات حول ما يجب طرحه من تساؤلات وما يجب استخدامه من إجراءات نظرية وإمبريقية ملائمة فى الإجابة على هذه التساؤلات .

فإذا ما طلب المرء من عينة من المتخصصين فى ديناميات الجماعة أن يعينوا المشكلات الأساسية فى مجالهم لبرز احتمال أن يناظر عدد ما يقدم من قوائم مختلفة عدد أفراد العينة . وقد تقف القشمة التى قدمها كارت رايت وزاندر (١١٤) ممثلة لتلك المشكلات . فقد حدد

الباحثان المشكلات الأساسية المرتبطة بالدراسة فى مجال ديناميات الجماعة على أنها تتمركز حول : ١ – التصورات المسبقة عن طبيعة الجماعات ، ٢ – المشكلات المرتبطة بتحديد مجال الدراسة ، ٣ – مشكلات التوجه النظرى الملائم ، ٤ – مشكلة المنهج أو المناهج الملائمة لدراسة الجماعات ، ٥ – علاقة ديناميات الجماعة بالمجتمع الأكبر . ومن المؤكد أن هذه مشكلات هامة تغلف دراسة الجماعات الصغيرة على الرغم مما قد يعن للمرء من تساؤل عما إذا كانت هذه هى المشكلات الجوهرية . فقد أشار لانا (٣٣٤) على سبيل المثال ، إبان كتابته عن مسلمات علم النفس الاجتماعى إلى مشكلات تتصل بالفروق فى الفلسفات والنظريات والمناهج . ومن المحتمل أيضا أن يشير المرء إلى مشكلات أقل جوهرية فى طبيعتها من سابقيها مثل وجود تعريف بسيط للجماعة . فبعض الكتاب يعتبرون الثنائيات جماعات ، فى حين يرى آخرون أن الظواهر الهامة للجماعة لا تحدث إلا إبان تفاعل ثلاثة أو أكثر من الأشخاص ، وأن الحجم الأدنى لجماعة حقيقية هو ثلاثة أشخاص .

ونجد فيما يختص بأغراضنا أن المشكلات الأساسية فى ديناميات الجماعة اليوم هى المشكلات المرتبطة بالمنحى الملائم لتحليل الجماعات . وتبدأ هذه المشكلات بمشكلة التعريف التى تم استعراضها فى قسم سابق . ولكننا حتى إذا قبلنا تعريفا عاملا[1] للجماعة فلا نزال نجد فروقا جمة فيما يتصل بأكثر الطرق فاعلية فى دراسة الجماعات . وعلى أكثر المستويات عمومية نجد أن هناك انقساما فى الرأى حول ما إذا كان من الواجب أن يكون المنحى نظريا أو إمبريقيا . فالبعض يرى أن الطريقة الوحيدة التى يمكن أن يؤمل منها فهم « حقيقى » لعملية الجماعة هى التحليل النظرى . ويرى آخرون أن النظرية حتى فى أفضل صورها هى شىء مبتسر ، بينما فى أسوأ صورها مضيعة للوقت ، فوجهة النظر الإمبريقية المتطرفة لا ترى بالمستطاع فهم أية نظرية إلا من خلال التحليل الدقيق للملاحظات الإمبريقية فحسب . (وقد يشار على سبيل التعليق إلى خطأ كلا وجهتى النظر المتطرفتين التنظيرية والإمبريقية ، فهناك حاجة إلى كل من الدراسات النظرية والإمبريقية . فقد لا يكون بالمستطاع تشييد نظرية دون لإستعانة ببعض « الحقائق » التى تقف كعناصر أو وحدات للبناء النظرى ، كما تفضى الحقائق غير الصحيحة إلى نظريات غير صحيحة . وبمستطاع الدراسات الإمبريقية أن تزيد من احتمال صحة عناصر النظرية ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى لا يحتمل كم من الحقائق غير المنظمة وغير المترابطة – بصرف النظر عن صحتها – أن يؤكد فاعليته فى فهم أية ظاهرة معقدة . فالنظرية إنما تنهض بتنظيم البيانات ، ذلك التنظيم الذى يستلزمه فهم متضمناتها (البيانات) والتى تند عن المواقف المحددة التى أمكن الحصول على هذه البيانات من خلالها .

وعلى كل حال فعلى المتخصص فى ديناميات الجماعة أن يحدد أية نظرية وأية طريقة إمبيريقية

---

(١) Working definition

سيركن إليها فى دراسته لسلوك الجماعات الصغيرة . وعلى المستوى النظرى يمكن للمرء أن يختار من بين عدد كبير ومتنوع من المناحى . وقد أورد كارت رايت وزاندر (١١٤) ثمانية توجهات نظرية تبناها الباحثون فى تحليل الجماعات :

١ – نظرية المجال[١] : ترى هذه النظرية أن السلوك هو محصلة مجال من القوى المعتمد بعضها على البعض الآخر . وفى مجال ديناميات الجماعة كان النصير القوى لنظرية المجال هو كورت ليفين الذى قام بتحليل سلوك الفرد والجماعة كأجزاء من نسق ذى وقائع يتصل بعضها بالبعض الآخر . وتماثل طريقة التحليل تلك الطريقة المتبعة فى مجال الطبيعة حيث التسليم بأن خصائص أى حدث سلوكى معين تحددها علاقة هذا الحدث بالأحداث الأخرى فى ذات النسق . وتقدم نظرية المجال أساسا رائعا لوصف سلوك الجماعة وإن كانت – لسوء الحظ – لم توفق إلى صياغة نظرية منظمة لعمليات الجماعة .

٢ – نظرية التفاعل[٢] : وتنظر هذه النظرية إلى الجماعة على أنها نسق من الأفراد يتفاعل بعضهم مع البعض الآخر . وقد تحدد لها فى أكثر صورها شيوعا ثلاثة عناصر أساسية وهى النشاط[٣] والتفاعل والعاطفة[٤] . ويمكن من منظور منطوقها فهم كل جوانب سلوك الجماعة من خلال ايضاح العلاقات بين هذه العناصر الثلاثة الأساسية . وقد تبنى هذا المنحى بصفة أساسية علماء النفس الاجتماعى ذوو التوجه الاجتماعى ، وقد أثبتت هذه النظرية أنها أكثر فائدة فى وصف الجماعات الطبيعية .

٣ – نظرية الأنساق[٥] : وتتبنى هذه النظرية موقفا يتماثل إلى حد كبير مع ذلك الذى تبنته نظرية التفاعل ، بل إنه يوجد فى الحقيقة بعض التشكك فيما إذا كانت النظريتان تمثلان توجهين مختلفين . ففى كلتيهما تبتدى محاولة لفهم العمليات المعقدة من خلال تحليل العناصر الأساسية . ويكمن الفرق الأساسى بين نظرية التفاعل ونظرية الأنساق فى أنواع العناصر التى تم تحديدها واستخدامها فى التحليل . فبينما تتجه نظرية التفاعل إلى النشاط والتفاعل والعاطفة تصف نظرية الأنساق الجماعة كنسق من العناصر المتشابكة مثل : المراكز[٦] والأدوار[٧] مع تأكيد واضح على معطيات الجماعة ونواتجها .

٤ – التوجه السوسيومترى : ويؤكد هذا التوجه على اختيار أعضاء الجماعة لبعضهم البعض . وينظر للروح المعنوية ولأداء الجماعة على أنهما شيئان يعتمدان على العلاقات بين

---

(١) Field Theory
(٢) interaction Theory
(٣) Activity
(٤) Sentiment
(٥) Systems Theory
(٦) Positions
(٧) roles

أعضاء الجماعة ، تلك العلاقات التى تنعكس فى شكل اختبارات سوسيومترية . وقد أثار هذا التوجه الكثير من البحث ، كما ساهم – مثلما سنرى فيما بعد – فى فهمنا لجوانب معينة من سلوك الجماعة . إلا أنه من ناحية أخرى كان ولا يزال تأثير هذا التوجه على قيام نظرية منظمة تأثيرا محدودا .

٥ – التوجه المبنى على التحليل النفسى : ويشتق هذا التوجه من علم النفس الفرويدى . فهو يهتم بالعمليات الدافعية والدفاعية للفرد فى اتصالها بحياة الجماعة ، كما أسهم فى عديد من النظريات الأخرى . ومع ذلك لم يدفع هذا التوجه إلى البحث الإمبيريقى ، ومن ثم لم تكن الأسس الإمبيريقية للصياغات النظرية المنبثقة عن هذا التوجه بالقوة التى يؤمل فيها .

٦ – توجه علم النفس العام[١] : ويحاول هذا التوجه أن يمتد بالتحليلات النظرية لسلوك الفرد إلى سلوك الجماعة . وتنطبق على هذا الصيغ النظرية المختلفة المتعلقة بالعمليات الفردية مثل التعلم والدافعية والإدراك مباشرة على عمليات الجماعة . إلا أن هناك مشكلة تختص بما إذا كان من الواجب أن نسمى هذا المنحى توجها أم هو مجرد إنكار لأى شىء له تميزه فى سلوك الجماعة . وسوف نرى أن هذا الإنكار ليس صحيحا .

٧ – التوجه الإحصائى الإمبيريقى[٢] : ويتبنى هذا التوجه امكانية اكتشاف المفاهيم الأساسية لنظرية الجماعة من خلال تطبيق الإجراءات الإحصائية . وتمثل بحوث كاتل (١١٥) هذا المنحى . فقد حاول كاتل أن يكتشف الجوانب الأساسية لسلوك الجماعة عن طريق التحليل الإحصائى للبيانات الخاصة بالأفراد وذلك من خلال استخدام التحليل العاملى بصفة أساسية .

٨ – التوجه للنماذج الصورية[٣] : وقد كان لهذا المنحى شيوعه الكبير خلال الخمسينات من هذا القرن . ويحاول المنظرون الذين يتبنون هذا المنحى أن يقيموا نماذج صورية لسلوك الجماعة مستخدمين فى ذلك اجراءات رياضية صارمة . وغالبا ما يكون واضعو هذه النماذج أكثر اهتماما بالإتساق الداخلى للنماذج من اهتمامهم بدرجة التناظر بين النماذج والمواقف الطبيعية . وربما لهذا السبب لم يتأت عن ذلك التوجه سوى نماذج نظرية محددة لم يكن لها إلا تأثير ضئيل على ديناميات الجماعة .

ومن الواضح من خلال هذا المسح الموجز أن العديد من التوجهات التى أوردها كارت رايت وزاندر لم تسهم كثيرا فى التحليل النظرى لسلوك الجماعة . والواقع أن ثلاثة فقط من التوجهات الثمانية المذكورة هى التى أفضت إلى نظريات منهجية عن سلوك الجماعة : نظرية الأنساق (متضمنة نظرية التفاعل) والتوجه المبنى على التحليل النفسى والتوجه الإحصائى الإمبيريقى . ويجب أن نضيف إلى هذه القائمة توجها لم يذكره كارت رايت زاندر ألا وهو

---

(١) The general Psychology Orientation

(٢) The empirical - statistical Orientation

(٣) The formal models Orientation

نظرية التدعيم حيث مارست هذه النظرية تأثيرات هامة على نظرية الجماعات الصغيرة . وسوف يعرض الفصل الثاني نموذجا لنظريات فى سلوك الجماعات الصغيرة تمثل كل منها توجها من هذه التوجهات الأربعة .

وعلى المستوى الإمبيريقى من التحليل فإنه يمكن للباحث أيضا الانتقاء من بين عدد كبير من الأساليب الممكنة . وتتراوح الأساليب المتاحة ما بين دراسات استكشافية واستطلاعية تفتقد إلى الضبط المحكم ، هذا من جانب ودراسات معملية محكمة الضبط أو دراسات تنتهج المحاكاة من جانب آخر . ويؤكد المناصرون للمنحى الأول أن الدراسات التى تتسم بالصرامة الشديدة فى الضبط تتعامل مع مواقف وظواهر مصطنعة ، ومن ثم تفتقد نتائجها الصلة « بالحياة الواقعية » . أما المدافعون عن التصميمات المحكمة الضبط فهم يتبنون وجهة نظر مفادها أنه بإمكان الدراسات الوصفية الاستكشافية أن تأتى ببيانات افتراضية فحسب ، فى حين أن الدراسات ذات الضبط الصارم هى وحدها التى يمكن أن تفضى إلى درجة من التأكد بأن المرء قد أرسى مبدئ صحيحة عن سلوك الجماعة . أما مسألة الصلة « بالحياة الواقعية » فهى تمثل بالنسبة لهم مشكلة إمبيريقية يمكن ايضاحها من مجرد اختيار المبادئ التى أرسيت معمليا فى مواقف طبيعية .

ويمكن تصنيف طرق دراسة الجماعة فى ثلاثة أنواع أو ثلاث فئات رئيسية تمتد فيما بين أكثرها طبيعة وأقلها صرامة من حيث الضبط إلى أكثرها « اصطناعا » وأشدها ضبطا وهى : ١ – دراسات ميدانية ، ٢ – تجارب معملية ، ٣ – دراسات المحاكاة من خلال الحاسب الإلكترونى( ) .

وتتميز الدراسات الميدانية والتجارب المعملية ودراسات المحاكاة عن بعضها البعض فى ضوء المواقف التى تحدث فيها ونوعيات المفحوصين المعتاد دراستهم فى كل منها . فالدراسات الميدانية تجرى فى مواقف تحدث بشكل طبيعى ، بمعنى آخر فى الميدان . ووحدات الدراسة هى عادة الجماعات ذات الخبرة[٢] و أى جماعات طبيعية ذات تاريخ كجماعات العائلة أو فرق كرة السلة . ومع ذلك فقد تتباين الدراسات الميدانية فى الهدف والطريقة : فقد تأخذ صورة الدراسات الاستكشافية الوصفية أو صورة التجارب الطبيعية أو التجارب الميدانية . فتتولى الدراسات الوصفية الاستكشافية دراسة موقف طبيعى . فالباحث لا يتدخل إراديا فى الظواهر موضع الدراسة بأية صورة من صور التدخل . والتجربة الطبيعية منوط بها أيضا دراسة الظاهرة ، وهى فى هذه الحالة ضروب سلوك الجماعات ، دون ما تدخل فيها من جانب الباحث . إلا أنها

---

(١) Computer simulation studies

(٢) experienced groups.

تختلف عن الدراسة الوصفية الاستكشافية من حيث محاولة الباحث الاستفادة من الدمج العرقى الإجبارى فى المدارس لكى يدرس الجماعات المختلفة الأجناس[١]. أما فى التجربة الميدانية فإن الباحث يحدث بارادته تغيرات فى الموقف الطبيعى لكى يدرس تأثيرها على الجماعة .

أما بالنسبة للدراسة المعملية فإن ملامحها الأساسية هى أنها : ١ – تجرى فى اطار بيئة المعمل ، ٢ – ويتم اعداد الموقف بشكل إرادى لدراسة ظواهر معينة . وفيما يختص بالجماعات التى تأتى إلى المعمل فإما أنها جماعات ذات خبرة كما هو الحال بالنسبة للدراسة الميدانية أو من غير ذات الخبرة من حيث أن أعضاءها لم يسبق لهم التفاعل مع بعضهم البعض قبل بداية التجربة . ويتم تكوين هذه الجماعات الأخيرة بالطبع من خلال تحديد عشوائى أيضا للأعضاء أو من خلال انتقاء الأعضاء حسب محكات معينة مثل القدرة العقلية أو الخصال لشخصية أو العمر أو الجنس .. الخ .

أما فيما يختص بدراسة المحاكاة من خلال الحاسب الإلكترونى فهى أكثر صور البحث احتياجا إلى الفطنة . فتتم معالجة المتغيرات موضع الاهتمام من خلال برنامج معين ، كما « يتحدد » سلوك الجماعة من خلال الحاسب الإلكترونى وليس من خلال جماعات ممثلة لأشخاص حقيقيين . ومن ثم فقد نجح نهج المحاكاة من خلال الحاسب الإلكترونى فى دراسة الجماعة التي لا تحوى أشخاصا (٧٧) . وتعتمد دقة هذا المنحى على الدرجة التى يتسنى للباحث من خلالها أن يبرمج المتغيرات الحاسمة .

وسوف نعالج المناحى المختلفة لدراسة سلوك الجماعة فى الفصل الثانى بتفصيل أكبر كما سيتم النظر فى ضروب ضعفها وقوتها . ومن قبيل التصدير المبدئى فإنه يبد واضحا أن أفضل المناحى هو الذى يتحدد من خلال أغراض الباحث .

خطة الكتاب :

سوف يعالج هذا الكتاب أولا القضايا والمشكلات التى أثيرت إبان دراسة الجماعات ، كما سيعالج بعض الحلول المطروحة . وتعتبر هذه المناقشة فى بعض نواحيها مقدمة للمبادئ التى صيغت من خلال الدراسة العلمية لديناميات الجماعة ، وهو الاهتمام الأساسى لهذا الكتاب . وما يؤمل فيه هو أن يخلق عرض المبادئ الخاصة بسلوك الجماعات الصغيرة نظاما لذلك الكم من العلاقات المركبة التى تخلفت عبر أربعة عقود من البحث . وربما يتسنى للقارئ أن يقرر بنفسه ما إذا كان قد أمكن تحقيق هذا الهدف ، وإلى أى حد أمكن ذلك .

وينقسم الكتاب إلى خمسة أجزاء غير متساوية . الجزء الأول جزء تمهيدى يتعامل مع طبيعة الجماعات (الأقسام الأولى من هذا الفصل) ومناحى دراسة الجماعات (الفصل الثانى) . ويعالج الجزء الثانى أصل الجماعات والأداء الجمعى (الفصلان الثالث والرابع) .

---

(١) racially mixed roups

وهو محاولة لعبور الفجوة بين سلوك الفرد وسلوك الجماعة . فيستعرض الفصل الثالث للدراسات المبكرة فى التيسير الاجتماعى[١] وكما يقارن بين الأفراد والجماعات فى حل المشكلات المعقدة ، ويناقش ظاهرة القصف الذهنى[٢] وظاهرة التحول إلى المخاطرة كأمثلة لدراسات أكثر حداثة تختص بالسلوك الجماعى . والفصل الرابع بمثابة استقراء لعملية تكون الجماعة ونموها .

وينظر الجزء الثالث الذى يشكل الجزء الأكبر من الكتاب فى عملية التفاعل . فيكرس الفصل الخامس للمحيط الفيزيقى الذى يحدث فى إطاره تفاعل الجماعة كما يستعرض الأساليب التى تؤثر بها البيئة على السلوك ويناقش الفصل السادس الخصائص الشخصية لأعضاء الجماعة وعلاقة هذه الخصائص بعملية الجماعة . أما البيئة الاجتماعية للجماعة فستعالج فى الفصلين اللاحقين . فيقدم الفصل السابع تحليلا لما يترتب على تكون الجماعة من آثار . ويتركز الاهتمام هنا على تكوينات الأشخاص والخصائص الشخصية كما يتصلان بالتفاعل . ويتعامل الفصل الثامن مع البناء الاجتماعى للجماعة : نمط العلاقات التى تبرز خلال تفاعل الجماعة . أما تأثيرات خصائص العمل وأهداف الجماعة فستعرض فى الفصل التاسع .

والجزء الرابع ليس جزءا متمما للكتاب، إذ أنه يستعرض بعض تطبيقات مبادئ الجماعة لدى الجماعات ذات الأهداف الخاصة وكذلك بعض المشكلات التى تثار فى بعض جوانب عملية .

أما الفصل العاشر والحادى عشر فهما يستعرضان نمطين من الجماعات الخاصة ، مثل الجماعات الخبرية وجماعات الأطفال . وعلى القارئ المهتم أساسا بالدراسات العلمية للجماعات الصغيرة ذات التوجهات إلى العمل ، أن يهمل ، إذا أراد ، هذا الجزء من الكتاب .

أما فى الجزء الأخير (الجزء الخامس) فقد انصب الاهتمام على مشكلات ديناميات الجماعة وضوب قصورها وكذا المطامح المستقبلية المتعلقة بها .

---

(١) Social facilitation

(٢) Brain Storming